النظام التعليمي لـ جامعة قرطبة في عصرها الإسلامي

ارتبط العلم والتعليم في الإسلام ارتباطا وثيقا بالمسجد فقد انعقدت بالمسجد في عهد الرسول أولى حلقات العلم فكان مركزا ثقافيا فضلا عن مهامه الأخرى، واستمر الدور الثقافي للمسجد في الدول والأمصار الإسلامية حتى بعد ظهور المدارس المستقلة، إلا أنه لعب دورا أكبر في الأندلس لتأخر ظهور المدارس بها، وقد كان لـ "جامع قرطبة الأعظم" النصيب الأوفى في نشر العلوم والمعارف، ولذلك توجهت الأنظار إليه وغدا قبلة الراغبين في العلم وموضع رعاية رجال الدولة، وفي السطور التالية أتناول نبذة عن جامع قرطبة وعن نظامه التعليمي ومكوناته، وطرائقه التعليمية، وكلها أهلته ليغدو أعرق جامعة أوروبية.

جامع قرطبة الأعظم

ما إن تمكن المسلمون من فتح قرطبة أثناء عمليات فتح الأندلس عام 93 ه، حتى شرعوا في بناء جامع لهم، وتشير الروايات أن المسجد هو جزء من كنيسة، وفي هذا يقول ابن عذارى أنه لما فتح المسلمون الأندلس شاطروا "أعاجم قرطبة في كنيستهم العظمى التي كانت بداخلهم، وابتنى المسلمون في هذا الشطر مسجدا جامعا وبقى الشطر الثاني بأيدي الروم.. فلما كثر المسلمون بالأندلس، وعمرت قرطبة ونزلها أمراء العرب بجيوشهم، ضاق عنهم ذلك المسجد.. فلما دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس، وسكن قرطبة، نظر في أمر الجامع، وتوسيعه، وإتقان بنائه؛ فأحضر أعاجم قرطبة، وسألهم بيع ما بقي بأيديهم من الكنيسة المذكورة، وأوسع لهم البذل فيه..وخرجوا عن الشطر؛ فاتخذه وأدخله في الجامع الأعظم، وكان شروع عبد الرحمن الداخل في هدم الكنيسة وبناء الجامع سنة ١٦٩؛ وتم بناؤه وكملت بلاطاته واشتملت أسواره في سنة ١٧٠"[1].

بلغت نفقة بناء المسجد وإعماره نحو ثمانين ألف دينار كما قدرها ابن عذارى، بيد أنه البناء لم يكتمل في عهد عبد الرحمن الداخل وأتمه خليفته الأمير هشام الذي بنى به صومعة للآذان ومصلى للنساء وميضأة، وشهد المسجد توسعا آخر على عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط القرن الثالث الهجري، أما زيادته الثانية فكانت عام 234 ه حيث مدت بلاطات المسجد وافتتحت له أبواب جديدة وأضيفت له بعض الزيادات واعتني بزخارفه، وفي القرن الرابع أضيفت له زيادات متتالية وبني له محراب وزين بالفسيفساء الملونة، واستمر الخلفاء الأمويون في الاعتناء بالمسجد الذي صار أكبر مساجد الأندلس وأكثرها عمرانا حتى غدا كما يقول الإدريسي "ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقا وطولا وعرضا"[2]

لم تقتصر عناية الأمويون على الناحية العمرانية بل اعتنوا كذلك بتشجيع الحياة الفكرية والعمل على جعل قرطبة مركزا فكريا لا يقل عن بغداد حاضرة العباسيين في الشرق، ولأجل ذلك شجعوا حركة التعليم بالجامع ودعموها، ونشطوا في دعوة العلماء المشارقة إلى القدوم إلى قرطبة للتدريس وأجزلوا لها العطايا والهبات، كما أنشأوا بالمسجد مكتبة ضخمة قدرت بنحو أربعمائة ألف كتاب ضمت صنوف المعرفة وزودوها بالكتب وأرسلوا النساخون لأجل نسخ الكتب النادرة من الشرق، وهكذا تحول المسجد إلى جامعة تستقطب الدارسين من شتى ربوع الأندلس ومن خارجها حيث صار قبلة الأوروبيين ومنهم الأباطرة والنبلاء الذين ألحقوا أبنائهم به[3].

النظام التعليمي

تشير دائرة المعارف الإسلامية إلى أن الخليفة عبد الرحمن الناصر هو من أسس جامعة بالمسجد الجامع بقرطبة، وقصدها في عهده الطلاب من أوروبا وأفريقيا وآسيا، وبلغ عدد تلامذتها بين خمسة آلاف وستة آلاف طالب، وفيما يلي نفصل في مفردات النظام التعليمي بالجامعة، وهي: المدرسون، الطلاب، المناهج والعملية التعليمية[4].

المدرسون : نهض بعبء التدريس بالجامعة علماء ذوي مكانة علمية مرموقة ولديهم خبرة في التدريس ولذلك نلحظ أن كثيرون جاءوا من مساجد أخرى نالوا فيها سمعة طيبة، وبعضهم نقل بأمر الدولة كما هو الحال مع سعيد بن عمير بن عبد الرحمن الذي نقله الأمير عبد الله من بلاط محنيث ليتولى التدريس في جامع قرطبة، وأحمد بن خالد الذي كان له مجلس بأحد المساجد ثم طلب منه الخليفة الناصر الانتقال إلى جامعة قرطبة والتدريس فيها، ولكن هذا لا يعني أن الدولة تولت عملية تعيين الأساتذة إذ ظلت هذه العملية بيد علماء الجامعة، واقتصر دور الدولة على التعيين في حالات معدودة أو استقدام بعض علماء المشرق كما هو الحال مع القالي صاحب كتاب (الأمالي) الذي استقدمه الخليفة الناصر، وتولى التدريس بالجامعة وكانت له مجموعة هائلة من الطلاب.

كان للعلماء في الجامعة منزلة رفيعة وشهرة واسعة، يعظمهم الناس ويهابونهم، ويستشيرونهم في شئونهم، ولذلك لم يكن ممكنا أن يفصل أحدهم عن منصبه، وإنما كان الكرسي التدريسي يخلو بسبب وفاة صاحبه أو ارتحاله لمكان لآخر خارج قرطبة أو عودته إلى وطنه بالشرق، وعندئذ كان العلماء يعملون على اختيار عالم آخر ليشغل الكرسي الشاغر.

وثمة شروط ينبغي أن تتوفر في المدرس وهي العلم والتقوى وسلامة العادات، وعليه أن يكون لطيفا في درسه، سخيا في الشرح والتعليق، لا يكتم علمه عن طلابه، وأن يكون لهم بمنزلة الأب أو الأخ الأكبر.

الطلاب : استقطبت جامعة قرطبة طلابا من داخل البلاد ومن خارجها، ويقال أن عدد الطلاب كان يتزايد باضطراد، وهذه الزيادة حتمت على المسئولين إجراء توسعات بالمسجد فضلا عن إنشاء سقائف ومكاتب ملحقة بالمسجد لتأهيل الصغار قبيل التحاقهم بحلقات العلم، وربما استخدمت هذه المكاتب لتدريس بعض العلوم التطبيقية وإجراء التجارب العملية، التي يتعذر إجراؤها ضمن حلقات العلم في المسجد.

وكان هناك الطلاب المنتسبون وهم الذين لا تمكنهم ظروفهم من حضور الدرس (الحلقة) فيعتمدون على الكتاب في التحصيل، وإذا نالوا قدرا كافيا من العلم تقدموا للحصول على (الإجازة) من الأستاذ المختص في الفن الذي حصلوه.

ويختار الطلاب الأستاذ الذي يتلقون عنه العلم، فلم يكن ممكنا إجبارهم على حضور حلقة أستاذ لا يريدونه، ولذلك كانت بعض الحلقات تحظى بطلاب كثيرون وبعضها ليس كذلك، وكان توزيع أوقات الدروس يتم بالتوافق بين الأستاذ وطلابه بحيث يراعى ظروف الأستاذ الذي ربما شغل منصبا قضائيا أو كان ممن يمتهن مهنة يتكسب بها عيشه، ويراعى كذلك تجنب أوقات الذروة في الجامع وغالبا ما تكون وقت الضحى إلى قبيل العصر، وفي كل الأحوال كان على الطالب بالجامعة توقير شيخه والتزام غاية الأدب في مجلسه، والتزام الصمت في الدرس مصداقا لقول القائل(أول باب العلم الصمت، والثاني استماعه)، وعدم المداخلة مع الأستاذ عند الإلقاء، واستحضار دروسه بانتظام.

المناهج وطرق التدريس : لا يختلف النظام التعليمي السائد في قرطبة عما كان سائدا في العالم الإسلامي، فقد كان أسلوب الحلقة هو الأسلوب المتبع، حيث يجلس الأستاذ إلى عمود ويتحلق حوله التلاميذ على هيئة حلقة مستديرة، ويفتتح الدرس بالثناء على الله وحمده، والصلاة على نبيه، ثم يشرع في بيان مفردات الدرس والإجابة عن استفسارات الطلاب ويختم بالدعاء، وكانت تعقد عدة حلقات في آن واحد، وكان القائمون على الجامعة ينسقون هذه الحلقات زمانيا ومكانيا لتجنب الازدحام وحدوث فوضى.

وكان الطالب يختار المواد الدراسية التي يود حضورها، ويقرأ في الكتاب (المقرر الدراسي) الذي يراه نافعًا ومفيدًا ولم تكن هناك جهة داخل الجامعة أو خارجها تفرض عليه تلقي علم لا يريده، كما لم تكن هناك معايير تحدد متى يبدأ التعليم ومتى ينتهي وإنما إن استشعر الطالب أن حصل دقائق العلم أو حفظ المتن المقرر وفهم غوامضه فإنه يطلب من شيخه إجازة بذلك.

وأما عن المناهج الدراسية التي كانت تدرس في الجامعة فهي: القرآن والحديث والفقه والأصول وعلوم العربية والرياضيات والفلك والطب، وكان الطلاب عادة ما يبدأون بدراسة علوم العربية والنحو لتعينهم على فهم بقية المواد الأخرى، ومن الواضح أن العلماء لم يميزوا بين العلوم الدينية وغيرها فهم "يعتقدون أن لا فرق مطلقا بين العلم والحكمة" كما يقول ول ديورانت، ويستشف من كلامه أن العملية التعليمية بلغت مداها خلال القرون الأولى للفتح حيث قدر أعداد المدرسين بالمئات، ومثلهم النحاة والشعراء[5].

أما عن الطرق المتبعة في التعليم فمن أكثرها شهرة:

- **طريقة الإسماع أو الإلقاء**: وتعني أن يجلس الأستاذ ويتولى قراءة الكتاب وخلال القراءة يوضح ما غمض من معانيه ويفصل في أفكاره، ويوجه طلابه ويفيدهم وهم ينصتون إليه، وهو ينقسم إلى تحدث وإملاء وهذه الطريقة لا تزال مستخدمة رغم ابتكار أدوات تربوية حديثة.

- **طريقة الإملاء:** وتعني أن يجلس الأستاذ وحوله تلاميذه بالمحابر والقراطيس ويتحدث بما يمن الله عليه من العلم، ويكتبون ذلك فيصير كتابا ويسمونه "الأمالي" وقد تكون الأمالي شرحا للأستاذ وقد تكون كتابا من حفظه يمليه على طلابه وفي كلتا الحالتين يضبط الأستاذ كل كلمة تصدر عنه ويقيد الطالب بدقة كل ما يسمعه، ومن أمثلته أن القالي البغدادي أملى كتابه الأمالي في قرطبة وكتبه عنه محمد بن مروان.

- **طريقة الإقراء:** وهي أشهر طرق التعليم وقد تسمى القراءة على الشيخ، وهي أن يقرأ الطالب على الشيخ حفظا أو من كتاب ويعلق الشيخ أو يشرح ما غمض من المعاني، وهي تتطلب أن يكون الشيخ متيقظا لما يقال لكي يصحح ما قد يقع فيه الطالب، كما أن فيها تنقيح للكتاب المقروء، وهو ما يضمن سلامة المادة العلمية، ولذلك يقول يحي بن سعيد "إذا قرأت على المحدث كان أحب لي لأنه يصحح لي كتابي"، وهذه الطريقة اتبعت في تعليم القراءات القرآنية، وفي العلوم الدينية واللغوية عامة[6].

- **طريقة المناظرة والحوار:** حيث يقوم الأستاذ بطرح قضية ما لها عدة وجوه، ويقوم بمناقشتها وطرح التساؤلات بشأنها، ويسمح للطلاب بالتناظر حولها، وقيل إنها تعني اعتماد الأستاذ طريقة السؤال والجواب، وهذه الطريقة اتبعها المعلم الأول ﷺ مرارا مع أصحابه تنشيطا لأذهانهم وإثارة لفضولهم العلمي، وأما المناظرة فتقع في الغالب بين بين الأساتذة أنفسهم ولها ضوابط وشروط كثيرة مبسوطة في الكتب.

وبالجملة تمتعت قرطبة في عصرها الإسلامي بحياة فكرية خصبة بفضل جامعتها العريقة التي غدت قبلة طلاب العلم من كل مكان.

[1] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 2/229

[2] الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 2/575.

[3] خالد إسماعيل نايف الحمداني، جامعة قرطبة دراسة لنظامها التعليمي وأثرها الحضاري حتى القرن الخامس الهجري، إسلام أباد: مجلة الدراسات الإسلامية، ع 34، 1999، ص 97-98.

[4] نجيب العقيقي، المستشرقون، 1/52.

[5] ول ديورانت، قصة الحضارة، 13/307

[6] عدنان صالح العمودي، التعليم في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 1431، ص 96-106.